الإمام الجليل

محمد أبو زهرة

زهرة التفاسير

دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهـــر
مجمـع البحـوث الاســـلامية
الادارة العـــامة
للبحـوث والتـاليف والترجمـة

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

السيدة الدكتورة / حبيبة السيد محمد أبو زهرة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

وبعد

فيسرنا أن نقدم لسيادتكم مشكورين لإعادة طبع ونشر تفسير القرآن الكريم حيث الآية ٧٢ من سورة النمل للإمام المرحوم الشيخ / محمد أبو زهرة.

نقدركم بأنه لا مانع من إعادة طبع ونشر التفسير المذكور مع الالتزام بالعناية التامة بالنصوص القرآنية وتصويب ما قد يظهر من ضعف عند طبع المراجع بواسطة الإدارة.

رجاء العلم والإحاطة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مديرة
إدارة البحوث والتأليف والترجمة

٨٧/٢/٨

تحريرا في ١٤٠٧/٧/٨هـ
١٩٨٧/٢/٨م

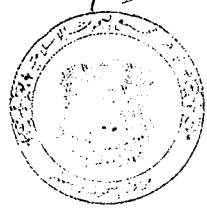

تعريف بالإمام الجليل
محمد أبو زهرة

هذا التعريف مأخوذ أساسا مما كتبه فضيلته بنفسه بناء على طلب أحد طلاب العلم من باكستان متقدما برسالة لنيل درجة الدكتوراه عن الإمام أبو زهرة.

ولد الإمام محمد أحمد مصطفى أبو زهرة فى مارس سنة ١٨٩٨م فى مدينة المحلة الكبرى إحدى مدن محافظة الغربية.

حفظ القرآن الكريم فى صدر حياته فى الكُتَّاب، إذ هو من أسرة دينية تنتسب إلى ولى من أولياء الله هو الشيخ مصطفى أبو زهرة الشهير بالششتاوى الذى يزار ضريحه بمسجده ببلدة شيشتا فى مدينة المحلة الكبرى ووالده هو الشيخ أحمد مصطفى أبو زهرة مشهور بالصلاح والالتزام بالدين الحنيف ومكارم الأخلاق ووالدته حافظة للقرآن الكريم وكانت تراجع معه ما حفظ قبل الذهاب إلى الشيخ فى الكتاب، وتميز عن إخوته وأخواته بحفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز التاسعة من العمر، ولأنه كان ذا حافظة قوية، سريع البديهة فلم ينل من قسوة أستاذه بالكتّاب إلا قليلا.

كانت الأسرة من متوسطى الحال يظنها الناس من الأثرياء اشتهرت بالعلم والذكاء، وقد نبغ منها شقيقه الأستاذ الدكتور مصطفى أحمد أبو زهرة منشئ ورئيس قسم هندسة الطيران بكلية الهندسة جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا) وأيضا الأستاذ بكلية الهندسة بجامعة لندن بإنجلترا.

بعد حفظ القرآن الكريم تعلم مبادئ العلوم المدنية كالرياضيات، التى كان شديد الولع بها، والجغرافية والفلسفة مع العلوم العربية.

التحق فى سنة ١٩١٣م بالجامع الأحمدى بطنطا ومكث فيه ثلاث سنين، وفى هذه الفترة ابتدأ نبوغه وتفوقه يظهر حتى أن شيخ الجامع وهو الشيخ الأحمدى الظواهرى الذى صار شيخا للأزهر، اقترح أن يمنح مكافآت خاصة لامتيازه، كما اقترح بألا يمكث فى طلب العلم الأزهرى خمسة عشر عاما، كما كانت المدة المقررة، بل إن مثله يصح أن يتجاوز سنين عدة فى سنة واحدة، ولم يتم تنفيذ هذا القرار لصعوبته قانونيا، ولانتقاله إلى مدرسة القضاء الشرعى.

التحق فى سنة ١٩١٦ بمدرسة القضاء الشرعى بعد امتحان مسابقة كان فيها من الأوائل. وتكوينه العلمى الحقيقى كان فى هذه المدرسة التى أنشأها سعد باشا زغلول فى وزارة المعارف على أن تكون عالميتها من درجة أستاذ وعهد بإدارتها إلى رجل عظيم هو عاطف باشا بركات. ومن وقت أن دخل المدرسة كان ينظر إليه ناظرها عاطف باشا بركات نظرة اهتمام وتشجيع، وقد مكث فيها تسع سنين، أربعة فى القسم الثانوى وخمسة فى القسم العالى، وفيها اتسعت آفاقه الفكرية ولما تخرج منها ونال شهادة العالمية من درجة أستاذ عام ١٩٢٥ كون لنفسه منهجا فكريا فى فهم الشريعة وتفسيرها، وكلما تعمق فيها ازداد إيمانا بها.

فى ذلك الحين كان قيام ثورة (١٩١٩م)، فوقف على الكثير من دقائق أحداثها ووقائعها، وأحب سعد باشا زغلول وتعلق به وكان حريصا على حفظ خطبه وترديدها.

أخذ دبلوم دار العلوم من الخارج سنة ١٩٢٧م وفى هذه السنة عين مدرسا للشريعة واللغة العربية بتجهيزية دار العلوم والقضاء الشرعى لمدة ثلاث

سنين ثم انتقـــل بعـد ذلك إلى التـدريس فى المدارس الثانويـة العامـة لمدة سنتين ونصف.

انتقل فى أول يناير سنة ١٩٣٣م إلى كلية أصول الدين مدرسا للجدل والخطابة فيهـا ثم تاريخ الديانات والملل والنحل، وفيهـا أخرج أول مؤلفاته كـتاب «الخطابة» وكتاب «تاريخ الجـدل» ثم كتاب «تاريخ الديانات القديمة» ثم كتاب «مـحاضرات فى النصرانية» الذى ترجم إلى عدة لغات.

فى ٢ نوفمبر ١٩٣٤م نقل مدرسا للخطابة بكلية الحقوق جامعة القاهرة (فؤاد الأول) مع بقـائه بالانتداب فى كليـة أصول الدين التى اسـتمـر بها إلى يونيـو سنة ١٩٤٢م وارتدى الزى الأزهرى.

فى سبتمـبر سنة ١٩٣٥م انتقل من تدريس اللغة العربيـة إلى تدريس الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق جامعة القـاهرة (فؤاد الأول) متدرجا فى مراتبها من مدرس إلى أستاذ مـساعد إلى أستاذ كرسى إلى رئيس قـسم الشريعة ووكيلا لكليـة الحقوق جامعة القاهرة لمدة خمس سنوات انتهت ببلوغـه ســـن التقاعد سنة ١٩٥٨ واستمر فى التدريس بـكلية الحقـوق كأسـتاذ غيـر متفـرغ وفى غيـرها حتى توفـاه الله عام ١٩٧٤م.

وقد تولى التدريـس فى كلية المعاملات والإدارة بجامـعة الأزهر سنة ١٩٦٣م وكذلك معهد الخدمة الاجتماعية وغيره من المعاهد.

وقد اشترك فى إنشـاء وتولى التدريس ورئيسا لقسم الشريعة الإسلامـية بمعهد الدراسات الإسلامية ومـعهد الدراسات العربية العالى التابع لجـامعة الدول العربية. واشترك فى إنشاء جمعية الدراسات الإسلامية.

أختير عضوا لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر فى سنة ١٩٦١م ومقررا للجنة بحوث القرآن ولجنة المتابعة ولجنة السنة المطهرة وشيخا فى لجان التقنين للمذهبين الحنفى والشافعى.

كان أيضا عضوا بمجلس جامعة الأزهر، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ومعهد البحوث الجنائية والاجتماعية، والمجلس الأعلى للفنون والآداب، ومجلس محافظة القاهرة.

صفاته - سعة علمه ومبدؤه:

كان رحمه الله، أبيض اللون، جهير الصوت، شديد الذكاء، سريع البديهة، منظما وحر الفكر، راجح العقل، شديد الإيمان بما يقول، مستقل الرأى لا يخشى فى قول الحق لومة لائم، ويمزج فى محاضراته العلم الجاد الوقور بالدعابة الحلوة الخفيفة.

كان رحمه الله عالما متبحرا فى الفقه وأصوله وفى علوم القرآن وتفسيره، وخطيبا مفوها، وأصوليا متعمقا، ومجتهدا يقرع الحجة بالحجة والمنطق بالمنطق لا يشق له غبار يسعى دائما لتقديم الجديد والفريد للمكتبة العربية والإسلامية رافضا أن تكون كتاباته ترددا لأقوال الآخرين لما عرف عنه من اعتزازه بنفسه وبغضه لسيطرة الآخرين بغير حق.

كان رحمه الله يعيش للمبادئ ويكافح من أجلها، يناضل لعقيدة يحيا فيها ويعيش لها، يعلن رأيه ويجمع الناس عليه فقد كان فقيها فى مقدمة الفقهاء ورائدا تقدم القافلة وقد تشابهت أمامها السبل المتباينة. وقد عرض عليه البقاء والعمل بالخارج فقال: «إن وجودى فى مصر هنا يؤدى واجبا أرى أنه أصبح بالنسبة لى أشبه بفرض العين؛ فأنا على ثغر من ثغور الإسلام يتأثر بها أى بلد عربى وأى بلد إسلامى، فمصر هى العقل وهى القلب وهى الأزهر». فكان رحمه الله بحرا زاخرا، وفيضا فياضا، ورائدا عاش حياته حاملا اللواء يمزج بين العلم والشجاعة، ومن هنا كثر رواده وعظم قصاده. وقيمة العالم

بما خَـرَّج من تلامذة علمـاء أوفيـاء فى جـميع أنحـاء العالم وبمـا أثرى المكتبـة العربيـة والإسلامية من مراجع علمية.

المؤلفات والبحوث:

بجانب أشهر المؤلفات والموسوعات الإسـلامية التى تزيد عن الأربعين فقد كانت له الكثـير من البـحوث فى الـعديد من المجـلات العلميـة والاجـتمـاعيـة: مجلة القـانون والاقتصاد، ومجلة المسلمـــون، ومجلة حضارة الإسلام، ومجلة القانون الدولى، وكتاب أسبوع الفقه الإسلامى، وكتاب أسبـوع القانون والعلوم السياسية، ومجلة الأزهر، ومجلة العـربى والعـديد من المجـلات بمخـتلف الدول العـربية. وكـذلك عـدد لا يحـصى من الأحاديث الصـحفية كـان يرد بها على المهاجـمين للإسلام وللدفاع عن قـوانين الأحوال الشخصية.

أما فى مـجلة لواء الإسلام الشهرية لصـاحبهـا أحمـد باشا حمـزة فكانت للإمام أبـــو زهرة أربعة أبواب ثابتـة هى: تفسير القـرآن الكريم، ومقال اجتـماعى، وندوة لواء الإسلام، وباب الفـتاوى للرد على أسئلة الـقراء. هذا على مدى مـا يقرب من الأربعين عاما فيما لا يقل عن أربعة آلاف صحيفة.

كان لفضيلة الإمام نشاط واسع فى محاضرات وندوات عامة فى مختلف الجمعيات الاجتماعية والإسـلامية العامة والخاصة داخل مصر وخارجهـا. لفضيلة الإمام العديد من الأبحـاث ألقيت فى المـؤتمرات والندوات الدولية الـتى حضـرها مـثل: حلقة الدراسـات الاجتماعية التى انعقدت فى دمشق ١٩٥٢م - مؤتمر الندوة الإسلامية الذى عقد فى لاهور (باكستان) فى الفترة من ١٩٥٧/١٢/٢٩ إلى ١٩٥٨/١/١٣ - مؤتمر الخبراء الاجتماعيين الذى انعقـد عدة مرات بـالقاهرة وانعقـد بالكويت عام ١٩٥٨ - مؤتمـر مجمع البـحوث الإسلامية المنعقد بالجزائر عام ١٩٦٩ ثم بالمغرب عام ١٩٧١ ثم بالقاهرة عام ١٩٧٣.

هذا بخلاف المحاضرات والندوات خلال زيارات فضيلة الإمام لدول السودان، والكويت، والجماهيرية الليبية، والجزائر، وسوريا، وغيرها.

قام العديد من الباحثين بعمل رسائل ماجستير ودكتوراه عن الإمام محمد أبو زهرة فى باكستان والهند وسائر البلاد الإسلامية كما ترجمت له العديد من المؤلفات.

أشهر مؤلفاته وكتبه:

١- الخطابة.

٢- تاريخ الجدل.

٣- تاريخ الديانات القديمة.

٤- محاضرات فى النصرانية.

٥- محاضرات فى الوقف.

٦- محاضرات فى عقد الزواج وآثاره، مقارنة بين المذاهب الفقهية والقوانين العربية.

٧- أصول الفقه.

٨- أحكام التركات والمواريث.

٩- الجريمة فى الفقه الإسلامى.

١٠- العقوبة فى الفقه الإسلامى.

١١- الميراث عند الجعفرية.

١٢- أصول الفقه الجعفرى.

١٣- الأحوال الشخصية.

١٤- الإمام زيد: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.

١٥- الإمام الصادق: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.

١٦- الإمام أبو حنيفة: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.

١٧- الإمام مالك: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.

١٨- الإمام الشافعى: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.

١٩- الإمام أحمد بن حنبل: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.

٢٠- الإمام ابن حزم الأندلسى: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.

٢١- الإمام ابن تيمية: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.

٢٢- تاريخ المذاهب الإسلامية جزءان فى مجلد واحد.

٢٣- المعجزة الكبرى (القرآن).

٢٤- خاتم النبيين - ثلاثة أجزاء فى ثلاثة مجلدات.

٢٥- الملكية ونظرية العقد.

٢٦- شرح قانون الوصية.

٢٧- الدعوة للإسلام.

٢٨- الولاية على النفس.

٢٩- العقيدة الإسلامية.

٣٠- المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام.

٣١- التكافل الاجتماعى فى الإسلام.

٣٢- العلاقات الدولية فى ظل الإسلام.

٣٣- تنظيم الإسلام للمجتمع.

٣٤- تنظيم الأسرة وتنظيم النسل.

٣٥- بحوث فى الربا.

٣٦- الوحدة الإسلامية.

٣٧- نظرية الحرب فى الإسلام.

٣٨- مقارنة بين الفقه الإسلامى والقانون الرومانى.

٣٩- بحث فى قانون الأسرة - نشر بكتاب عن الفقه الإسلامى بنشرة معهد واشنطن للقوانين الدولية.

٤٠- بحث فى السياسة الإسلامية - نشر فى مجلة القانون الدولى المصرية.

٤١- نظرات فى العبادات الإسلامية.

٤٢- تفسير القرآن الكريم (زهرة التفاسير) حتى الآية ٧٣ من سورة النمل.

وفاته:

عقد الإمام محمد أبو زهرة فى أواخر عام ١٩٧٣ وأوائل عام ١٩٧٤ العديد من الندوات والاجتماعات بجامعة القاهرة والإسكندرية وفى جمعية الشبان المسلمين لمحاربة التعدى على الشريعة الإسلامية، وكانت له صولات وجولات فى مجمع البحوث الإسلامية والأزهر بخصوص تحديد النسل وتقييد تعدد الزوجات والطلاق فى مشروع قانون الأحوال الشخصية لوزارة الشئون الاجتماعية، وقرر فضيلة الإمام رحمه الله إقامة مؤتمر شعبى لمناقشة هذا الأمر فى سرادق كبير فى شارع العزيز بالله أمام منزله بضاحية

الزيتون، أقامه الإمام رحمه الله على نفقته الخاصة وقام فضيلته بمعاينة المكان وإنشاء السرادق مبكرا فى صباح يوم الجمعة ١٢/ ٤/ ١٩٧٤ ثم عاد إلى حجرة المكتب بالدور العلوى وشرع فى إكمال تفسير سورة النمل حتى أذان الظهر، وأثناء نزول فضيلته حاملا القلم والمصحف مفتوحا على آخر ما وصل إليه فى التفسير وأيضا الورق الذى به ما كتب من التفسير تعثر رحمة الله عليه وسقط ساجدا على المصحف وعلى أوراق التفسير، ثم فاضت روحه الكريمة إلى بارئها أثناء أذان المغرب. وهكذا شاءت إرادة الله العظيم أن يكون هذا السرادق الذى أشرف فضيلته على إقامته لمؤتمر شعبى هو سرادق العزاء للإمام.

رضى الله عن شيخ مشايخ عصره، الإمام محمد أبو زهرة وأرضاه، وأسكنه فسيح جناته وأجمل فراديسه، وجعله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

أسرة الإمام الجليل محمد أبو زهرة

مقدمة

الحمد لله الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، والصلاة والسلام على محمد النبى الأمى الذى بُعث رحمة للعالمين وسراجًا منيرًا، وعلى آله وأصحابه الذين قبسوا من نوره، وجمعوا القرآن وحفظوه ليكون حجة الله تعالى القائمة إلى يوم الدين؛ وتحقيقًا لقوله تعالى : ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴿٩﴾﴾ [**الحجر**].

أما بعد :

فمنذ كنت طالبًا أشدُو فى طلب العلم، وأنهل من معارفه على قدر طاقتى، وأنا أتَشَوَّف لمعرفة القرآن الحكيم، وأتعرف أسرار بيانه ومعانيه، وأرى أن علمه هو الشريعة، وأنه ما ترك صغيرة ولا كبيرة منها إلا أحصاها، وأن محمدًا ﷺ علَّم الناس علمه، وبينه وأحكم بيانه، وحكم به بين الناس، وأظهر برهانه، فهو برهان الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ ...** ﴿١٧٤﴾﴾ [**النساء**] وهو الحق الذى لا ريب فيه، وهو حكم الله تعالى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقد قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾**﴾ [**النساء**].

ولقد كانت أمنيتى العلمية أن أكون قريبًا منه دائما، وكنت أراجع الكتب التى تصدت للتعريف بمعانيه؛ موجزها ووسيطها ومبسوطها، قديمها وجديدها، مؤمنا

بأن علمه هو علم الإسلام، بل هو علم النفوس البشرية، وأسرار الوجود، وأنه علم النبوة الإلهية فى مختلف العصور.

ولما شرفنا الله تعالى بتدريس العلوم العربية والشرعية كان أول دروسنا فى تعرف معانى القرآن، فكان ذلك يمنًا وبركة وإشعارًا بتوفيق الله تعالى لنا، فى مستقبل أعمالنا.

ولكنا شُغِلْنَا عن تفسير القرآن بدروس إسلامية أخرى، وإن كنا لم ننقطع عن القرآن، وإن كان ذلك فى أوقات قصيرة، فكلما دعينا لمحاضرة عامة، جعلنا القول فى علم القرآن غايتنا، فكنا نعود إليه الفينة بعد الفينة، حتى دعتنا مجلة دينية كانت لها مكانتها، ولصاحبها مكانة من تقوى الله؛ لنكتب فيها تفسيرًا أتمم به ما بدأه طيب الذكر فضيلة الشيخ محمد الخضر التونسى رضى الله عنه، وكان قد وصل فى تفسيره إلى قوله تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ ... ﴿١٨٩﴾** ﴾ [**البقرة**].

وقمنا بما استطعنا ، ووسعته طاقتنا حتى وصلنا إلى قوله تعالى فى سورة الأنعام: ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ... ﴿٥٩﴾** ﴾ [**الأنعام**] ثم حيل بيننا وبين السير فى عملنا، بمعوقات تتصل بوحدة النسق والكرامة.

والآن قد ابتدأنا الكتابة فى معانى القرآن الكريم من أوله إلى ما وصل إليه الشيخ الإمام الخضر، رحمه الله تعالى.

حتى إذا وصلنا إلى ذلك نشرنا ما كنا قد كتبناه فى المجلة، ثم نستأنف بعد ذلك القول فى معانى القرآن من قوله تعالى: ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ... ﴿٥٩﴾** ﴾ [**الأنعام**].

وقد كان مقررًا أن نكتب مقدمة للتفسير نبين فيها نزول القرآن منجما، وجمعه فى عهد الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما. وجمعه فى عهد ذى النورين، وبيان إعجازه ووجوه ذلك الإعجاز، وعن قصصه، وعلومه وجدله بالتى هى أحسن، وعن مناهج تفسيره وترجمته، (والغناء به)[1].

(١) الغَناء ـ بالفتح ـ في كلام العرب: النفع والكفاية.

كان ذلك فى تقديرنا، وأردنا القيام به بتوفيق الله تعالى، ليكون مقدمة للتفسير، يكون فيها تعريف به، وإن كانت حقيقة كتاب الوجود فوق التعريف والبيان.

ولكن وقد اتجهنا إلى ذلك اتسع البحث علينا، ووجدنا أن ذلك قد يكون فى ذاته غرضًا مقصودًا يقصد بالذات لا بالتبع؛ ولذلك أخرجناه كتابًا قائمًا بذاته سميناه «المعجزة الكبرى».

فهذا الكتاب وإن كان مقصودا بالجوهر والذات، هو أيضا مقدمة للتفسير، ويغنى عن كتابة مقدمة جديدة، وإنا بعون الله تعالى نتجه إلى الله تعالى ضارعين إليه أن يمدنا بعونه وتوفيقه فى القيام بحق كتابه الكريم علينا، وإننا بكرمه وفضله دائبون على كتابة ما قصدنا، حتى يوافينا الأجل المحتوم ونحن فى جوار كتابه العزيز، عاملين لا نبتعد عن عرفه[1] ولا تتجافى مقاعدنا عنه.

اللهم أيدنا بالقوة والإخلاص، وأن يجعله نورًا لنا، وأن يحفظ كتابه من الأهواء التى تبغى تأويله بغير هدى نبيه، وتحويل معانيه عن غاياتها، وأن يقيه من الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ولا يسلكون الجَدَد[2]، اللهم وفقنا لما تحب وترضى.

﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران].

الإمام محمد أبو زهرة

---

(١) العَرف، هكذا بالفتح: الرائحة مطلقا، وأكثر ما يستعمل في الطيبة منها.

(٢) يسلكون الجَدَد: يجتهدون. والجدد: الأرض المستوية.

الحمد لله رب العالمين الذى أرسل بالحق محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وعلى آله الأطهار وصحابته الأبرار.

أما بعد، فقد كانت معجزة هذا الرسول الأمين، خاتم النبيين تتناسب مع امتداد زمانها إلى يوم الدين، كانت خالدة باقية بخلودها، فكانت كلامًا معجزًا يتحدى الأجيال كلها، إنسها وجنها أن يأتوا بمثلها: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

وفيه علاج النفس، وطبها ودواؤها، وغذاؤها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس] وهو برهان رسالة محمد ﷺ ونورها المبين ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء].

وإن الرسل السابقين كانت لهم معجزات تقرع الحس، ولكنها انقضت بانقضاء زمانها، ولولا أن القرآن الكريم سجلها ما علمها أحد، أما القرآن فباق إلى يوم

الدين، وأحسب أنه حجة الأديان السماوية كلها، فلولا القرآن ما عرفت المسيحية الحق، ولطويت فى وسط الأوهام والخرافات التى اعترت العقل النصرانى.

وإنا والحمد لله قد شغفنا حبا بالقرآن وتعرف أسراره ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، وما وسعه وقتنا، وكنا ونحن نتلوه، ونتعرف ما يمكن أن نسمو إلى معرفته من معانيه نجد أمرين :

أولهما: أن كتب التفسير المطولة تبعثر المعانى السامية منه -وكل معانيه سامية- وسط مضطرب من الأقوال فى علم الكلام ومذاهبه، وآراء الفقهاء واستدلال كل صاحب مذهب على مذهبه، فوجدنا بعض التفسيرات يتجه إلى الإعراب، ومذاهب النحويين، والمعانى الروحية السامية للقرآن تتمزق بأوجه الإعراب، والقرآن المعجز وراء ذلك مستور بغشاء من الجدل والاختلاف وتوجيه الأقوال. والموجزات من التفسير يتجلى فيها القرآن مشرقا نيِّرا كما هو فى ذاته، ولكن لا تخلو من توجيه النص القرآنى بالمذهب الأشعرى أو المعتزلى وإن كانت لا تثير جدلا حول المعانى القرآنية إلا قليلا .

ثانيهما : أننا وجدنا تطابق أقوال المفسرين فى فهم آيات لا نرى أنها متفقة مع المبادئ المقررة فى القرآن كأقوال المفسرين فى قوله تعالى: ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾**﴾ [**الزخرف**] وتفسيرها على أنها تبين رفعة الأغنياء على الفقراء، وما ذلك بصحيح فى المبادئ الإسلامية، ولا المقررات الدينية. وكذلك قول المفسرين إلى عهد الحافظ ابن كثير فى تفسير الآيات ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾**﴾ [**الأحزاب**] وقد أجمع الأكثرون قبل الحافظ على أنها فى عشق النبى ﷺ لزينب بنت جحش، وما كان لنا إلا أن نصحح المعانى ونقول الحق الذى يناسب علو القرآن وكمال الرسالة مخالفين هؤلاء؛ فكتاب الله أعلى من أقوالهم، ومقام الرسول الأمثل أعلى من أقوالهم، ولو

تطابقوا عليها مع مخـالفة هذه الأقوال للنصوص، وتجافيها عنها بمقـدار تجافيها عن الحق، حـتى وجد المضـللون الذريعة لأن يقـولوا: النبى العـاشق، فـضلُّوا وأضلوا كثيرا.

من أجل هذا تسامـينا بما فوق طاقتنا، واسـتخرنا الله تعـالى، وكتبنا مـعانى الذكر الحكيم، كـما أدركت عـقولنا، ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ... ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [**البقرة**] ولا يكلف إنسان فوق طاقته، وإننا نقارب ونسدد.

وإنه يجب أن ننبه إلى أمور ثلاثة :

أولها : أننا لا نتجـه إلى الأغاريب إلا إذا اضطررنا لتـوجيه المعـانى وتقريب الناس من إدراكها، وإن ذلك نادر، وليس بالكثير.

ثانيها : أننا لا نذكر من القراءات المختلفة إلا إذا ترتب على اختلافها اختلاف فى المعانى، فنذكرها كلهـا، على أنها كلها قرآن، وأن هذه المعانى كلهـا مقصود فى القرآن السامى، ودليل على إعجازه .

ثالثـها : أننا فى بعض المواضع نأتى بالكلام مطنبـا، وذلك لنقرب الناس من معـانى القرآن التى تكون موجـزة فى ألفاظها ثرية فى مـعانيها، فنحـاول أن نقرب الناس من هذه المعانى؛ لأنه ليس عندنا طاقـة هذا الإيجاز البليغ الذى هو من دلائل الإعجاز.

هذا وإنا لا نحاول فـيما يتـعلق بالكون أن نحمل الألفاظ السـامية فـوق ما تحتمل أو غير ما تحتمل.

اللهم نسألك التـوفيق؛ فلولا توفيقك ما اهتـدينا، ولا وصلنا إلى غاية. إنك أنت السميع البصير، ولا نستمد العون إلا منك، وإنك نعم المعين.